# تقديم الكتاب

كان الاستاذ «كليمندس وب» [1] من أساتيذ الفلسفة بكلية المجدلية بجامعة اكسفورد. وقد ألقى سلسلة من المحاضرات في موضوعات فلسفية دينية في اسكتلندا والسويد والهند. وصنّف مؤلفات كثيرة أخصبت الحياة الفكرية في ميدان الدين. وما فتىء بعد اعتزاله العمل في الجامعة يكتب ويحاضر بقريحة اختزنت اختبارات الحياة، ونضجت فيها ثمرات التفكير الطويل والدرس المتواصل

وقبل سنوات استدعته جامعة كلكتا في بلاد الهند ليلقي على طلابها سلسلة من المحاضرات في موضوع يختاره كيفما شاء، في نطاق علم «الدين المقارن» او مقارنة الاديان. فوقع اختياره على موضوع «فضل المسيحية على الاخلاق»

والكتاب الذي نقدّمه الآن لقراء العربية في الشرق الادنى، هو ترجمة تلك المحاضرات القيّمة التي ألقاها الاستاذ

---

(١) Professor Clement Webb.

الفيلسوف على طلاّب جامعة كلكتا، والتي طبعت فيما بعد باللغة الانكليزية

وانّا نسارع الى القول إن بعض فصول هذا الكتاب تبدو لدى القراءة السطحية العَجْلى جافة مُضنية. وهذا طبيعي، فان موضوعات الفلسفة الدينية العميقة لا يستمتع القارىء لذتها الاّ بعد التفكير والتروّي

ونصيحتنا ألاّ يكتفي القارىء الكريم بقراءة الكتاب مرة واحدة. فانه كلما أوغل في استكناه معانيه العميقة، أحسّ بلذة فكرية لا تدانيها لذة اخرى

وحسبنا ان يكون الغرض من هذا الكتاب — على حدّ قول المؤلف — خلق روح التبادل الحرّ، والتعاون الطليق بين ذوي العقول المتدينة والافكار الحرّة

# تمهيد

ان الموضوع الذي وقع اختياري عليه هو فضل المسيحية على الاخلاق. وأرجو أن يُسمح لي أن ابيّن كيف أحسب هذا الموضوع داخلاً في نطاق علم الدين المقارن، أو بعبارة اصحّ علم مقارنة الاديان

وعندي ان هذا البحث لن يقدر على تتبّعه الاّ باحث يعرف من اختباره ما هو الدين. اما الجالس على عتبة العقائد والممارسات الدينية ينظر اليها من بعيد، فليس له الى هذا البحث من سبيل. لن يقدر على الغوص في هذا البحر الاّ مَن تغلغلت في حياته العادية عناصر الايمان والدين والعبادة

وفي مقارنة الاديان المختلفة، أراني مضطراً الى القول إننا سنكتفي في حالات معينة بدرس الظواهر الخارجية للدين، دون الجوهر الداخلي، وذلك حينما نمسُّ الاديان التي لم يعد لها وجود عملي ـ كدين الاغارقة ودين الرومان ـ أو حينما نمسُّ تلك الاديان التي يمارسها في هذا العصر أقوام ما زالوا في مستوى خفيض من الثقافة الذهنية. فاننا في أحوال كهذه لن يطول بنا التفكير في هذه الاديان، ولن نجعلها موضوعات للبحث العلمي.

كذلك في الاديان التي يدين بها أقوام في طوقهم ان يعللوا « سبب الايمان الذي فيهم » ، فاننا نرى ان دراسة هذه الاديان «من الخارج » في ظواهرها الخارجية لن تؤتي ثمارها ، وتكون ذات قيمة،الاّ اذا تداخل فيها اختبار الذين يعرفون هذه الاديان « من الداخل » لضبط الافكار وتصحيح المواقف .

واني أحسبه تطفلاً مني ، اذا أنا حاولت ان أضع بياناً أو أقول قولاً عن دين ما ، للذين يعرفون هذا الدين في جوهره « ومن الداخل » ، بينا لا أعرفه أنا الاّ معرفة سطحية « ومن الخارج » . لهذا السبب آثرت ان يقتصر بحثي على ديني ، الذي أعرفه في جوهره ، وسأشرح على قدر ما أوتيت من سعة في القول ، المبادىء الاخلاقية الاساسية التي تضمّنها

واني أحسب ميدان الاخلاق ميداناً مفتوحاً لاي انسان يود أن يعمل فيه بعقله وضميره لاكتشاف مكنوناته ، ولكنه ميدان لا غنىً فيه للكشّاف عن الاختبار الديني ، لفرد أو لمجموعة من الافراد ، ليستعين به على كشف الحق الذي لن يقدر على التوصل اليه بدون هذا الاختبار . وكمسيحي لا يسعني ان اتكلم عن فضل المسيحية على النظريات الاخلاقية ، كما لو كنت اتكلم مثلاً عن فضل « افلاطون » الاغريقي أو

«كانت» الالماني. فاني لا اكون مسيحياً اذا لم أحسب المسيحية «نقطة اجتماع الاشعة» التي ترى منها عين الكشّاف في ميدان الاخلاق، الاشياء في نسبها وأوضاعها الحقيقية. ومع هذا فاني لا افترض ان كل المعرفة الاخلاقية مستمدة تاريخياً من المسيحية. ولا أزعم ان المسيحية التاريخية قد أنصفت وعدلت في كل المبادىء الاخلاقية التي سلّمت بها

* * *

وتمهيداً لبحثه، يبدأ الاستاذ «كايمندس وب» بشرح معنى الاخلاق ومعنى المسيحية في نظره:

## ما معنى الاخلاق؟

من الميسور القول إن الاخلاق هي ما حسبه الناس «واجبا يؤدى» في ظروف مختلفة وازمنة مختلفة، وهي المؤثرات التي تكوّنت بموجبها افكارهم، وهي التصرفات الفعلية الناجمة عن تلك الافكار. من الميسور ان نكتفي بهذا القول دون التبسط في معنى كلمة «واجب» أو البحث في التعاليم المتفرعة التي ذهب اليها الفلاسفة في هذا الموضوع. على أن عقيدة الانسان في تلك الاحكام الادبية التي يصفها لا يمكن الاّ أن

تؤثر على الوصف الذي يذهب اليه . ولعلكمّ تريدون أن تعرفوا،وانا في صدد التحدث عن فضل المسيحية على الاخلاق، موقفي حيال المناقشات والمجادلات التي ثارت حول اصل الشعور بالواجب الادبي وقوته .

انما يجب أن يكون مفهوماً انه اذا اختلف معي أحد في موقفي هذا تجاه تلك المناقشات ، فليس من الضروري ان يضطر تبعاً لذلك الى أن يرفض ما أقول عن تاريخ المسيحية وأثرها في التعاليم الاخلاقية والسلوك البشري . و بعد هذا أرجو ان يسمح لي أن أبيّن وجهة نظري بياناً جازماً دون ايراد الادلة دفاعاً عنها، فان المجال لا يسمح لي بذلك اذا أردت انصاف الموضوع الخطير الذي أخذت على عاتقي معالجته الآن

واستطيع ان ابيّن وجهة نظري هذه ، في ايجاز وفي ايضاح، للذين يعرفون بعض الشيء عن الفكر الاوربي الحديث في الاخلاق، بقولي انني من اتباع «Kant كانت» الفيلسوف الالماني، حين يطلق على الآداب ما يسميه « categorical imperative أمر جازم أو نهي قاطع»، وحين يصف شعور الواجب الادبي بأنه من العوامل الفاصلة في طبيعتنا الروحية [1]. واذ يصف « كانت»

---

(١) « Immanuel Kant عمانوئيل كانت » فيلسوف

عمانوئيل كانت الفيلسوف الالماني
( ١٧٢٤ — ١٨٠٤ ب. م )

obeikan.com

الآداب بانها « الامر الجازم » ، يقصد اننا حينما نشعر اننا مكلفون أدبياً بفعل شيء ما أو الامتناع عن فعله ، فان هذا لا

---

الماني من سلالة اسكتلندية من ناحية أبيه . وهو من مشاهير الفلاسفة الذين أنجبهم التاريخ . ومما يقوله انه كان بحكم مزاجه وطبيعته من طلاَّب المعرفة والساعين اليها . وقد ولد سنة ١٧٢٤ وكان من سنة ١٧٥٥ الى وفاته في سنة ١٨٠٤ استاذاً في جامعة بروسية بالمانيا . ولذا يكون قد عاصر في الشطر الاخير من حياته الثورة الفرنسية . ويخيَّل الى كثيرين ان « كانت » قد اتمَّ في ميدان الفكر ما فعلته الثورة الفرنسية في ميدان السياسة . ذلك لانه هدم البناء القائم المصدّع الاسس وشرع في بداية جديدة . ولقد اختط في مؤلفاته التي برزت في عالم الفلسفة ، طرائق من الفكر ( مثل تعاليم ديكارت ) لو سايرها الناس الى نتائجها الطبيعية لكانت معاول للهدم أشد في فعلها مما توقعه الذين بدأوها

ولم يشدد « كانت » في شيء قدر تشديده على طبيعة الالزام بلا قيد ولا شرط المتضمنة في الآداب الصحيحة السليمة. وقد ذهب الى ان اكثر كتّاب الفلسفة الادبية لم يفهموا خواص الاداب بهذا المعنى ، وان تكن من تضاعيفها أحكام الضمير

يكون مجرد وسيلة نختارها لبلوغ غاية معينة. فالامر القائل: « افعل هذا اذا أردت أن تحصل على كيت أو كيت » أو « اذا أردت أن تكون كيت وكيت» هو، في مصطلحات « كانت»، أمر نظري فرضي hypothetical imperative ليس الاّ. لان في وسعي أن اتخلص من تنفيذ هذا الامر بقولي: « لا أريد هذا الشيء الذي تعلّقه على فعل معين،ولا أريد ان أكون الشخص الذي لن اكونه الاّ باتخاذ هذا النهج. أو على الاقل لست ارتضي ان أبذل هذه الكلفة ثمناً لهذا الفعل، ولو اني عالم اني لن أحصل على ذلك الشيء، ولن اكون ذلك الشخص، الاّ ببذل هذا الثمن »

## لا سبيل للتخلص من الشعور بالواجب الادبي

على انه لا سبيل الى التخلص من ذلك الواجب الادبي الذي يدعوه الفيلسوف كانت « الامر الجازم ». واراني مضطراً الى اتخاذ طريق ما، رضيت أو لم أرضَ، ربحت منه أو كنت من الخاسرين. وسألوم نفسي لو لم أفعله مهما تكن النتائج. ولا شك انه قد يكون من الصعب ان نستوثق من اضطرارنا الادبي هذا في حالة معينة بالذات، فقد يكون لنا ما نسميه

« الضمير البطل » ، ونشعر بشيء من الغضاضة في فعل اشياء تعودنا أن نحسبها «خاطئة» ولو أننا نكون قد اقتنعنا الآن انها بريئة ، لا عيب فيها . ولكن ما لم يكن فينا ذلك الشعور الذي نسميه « الواجب المطلق » وهو يختلف في طبيعته ونوعه عن الشعور الذي نساق اليه لبلوغ غاية معينة عن طريق وسيلة معينة ـ نقول ما لم يكن فينا هذه الشعور « بالواجب المطلق » المجرد عن كل القيود والشروط ، فاننا لا نقدر أن نختبر تلك الصعوبة أو نتألم من هذا الاحساس الذي لا مبرر له . فالشعور بالواجب الادبي، اي التمييز بين الخطأ والصواب،هو في نظري ، شيء آخر غير تقدير الاشياء في ضوء ما تشبعه من غايات أو تحققه من خير .

ولو ان هذا قد يكون صحيحاً ، بحيث يخيل الينا لاول وهلة اننا قد نضطر لفعل شيء أو الامتناع عن فعله دون أن ننتظر من ورائه خيراً أو مرضاة لنا ، نقول ولو ان هذا قد يكون صحيحاً، فان من المتناقضات الظاهرية في الحياة البشرية أن الانسان الذي يحسُّ حقاً بالواجب الادبي لن يشعر باللذة والرضى في فشل يتحقق ، كما ان احداً لا يسعه أن يجد الرضى والغبطة في القيام بالواجب الادبي على هذا النحو مهما لقى في

سبيله من عناء أو خسارة . وان وجد هذا الرضى وتلك الغبطة فلن يكونا من النوع الذي يلقاه الانسان في مصادر اخرى . ولا أقصد انهما يكونان رضى أقوى وغبطة أشد ، كلاً فقد لا يكونان كذلك . ولكن لن يفضلهما أنواع أخرى من الغبطة الصادرة عن اشياء غير القيام بالواجب الادبي .

فالانسان مثلاً قد يرى أن يضحي بمزية العيش في طقس يلائم صحته ليتمكن من حرية الانتقال الذي يضمن له ايراداً كبيراً . وهذه المزايا من النوع التي يسميها بعض الكتّاب مزايا اقتصادية . ولكن حينما يرى الانسان ، لباعث ما ، ان يخالف ضميره وشعوره بالواجب الادبي ، فانه قد يستبعد فكرة مخالفة ضميره ، ولكنه لن يستبعد لوم نفسه كلّما استذكر هذه المخالفة . ولوم النفس في عرفي يختلف كل الاختلاف عن الاسف أو الحرمان من متعة كان يود الحصول عليها ، لولا ان في الحصول عليها ثمناً لا يرى مسوغاً لايفائه

* * *

وحسبي الآن هذا القدر في الكلام عن الاخلاق أو علم الاخلاق . ولكن اراني مضطراً لان اعيد القول ان البيان التاريخي الذي سأثبته في هذه الصفحات عن أثر المسيحية في

افكار الناس وما يجب عليهم ان يعملوه ، وفي افعالهم وتصرفاتهم، قد يكون بياناً صحيحاً ، ولو كنت انا مخطئاً في وجهة نظري هذه عن ماهية الاخلاق . ثم اني لست ادّعي ان وجهة نظري هذه يعتنقها كل المفكرين المسيحيين (ولو انني مستعد لان احاجّ بالدليل انها تنسجم مع المسيحية ، بل تنسجم معها انسجاماً لا يتهيأ لاية وجهة نظر أخرى) . كذلك لست ادّعي أن رأيي هذا ، كنظرية فلسفية ، يعتبر جزءاً من التعاليم التي لا يُحسب الانسان مسيحياً الاّ بها . فالمسيحية ليست نظرية فلسفية ، انما هي طريق للحياة . ولكن بما ان كل نظرية فلسفية تعلل الحياة تعليلاً خاصاً ، فان الذين يتخذون المسيحية طريقاً لحياتهم يترقبون بالضرورة نظرية فلسفية تشرح لهم معنى هذا الطريق في الحياة .

## ما الذي اعني بالمسيحية ؟

قلت اني سأبين ماذا أعني بالاخلاق ، وماذا أعني بالمسيحية. وعند التكلم عن المسيحية سوف لا أقتصر على ما احتوى العهد الجديد بين دفتيه — ولو ان هذا الكتاب ، أو مجموعة الكتب، ليست المصدر الوحيد لما نعرفه عن نشوء المسيحية وحسب، بل هي

المقياس الذي جعلته أمامها الهيئات الدينية المسيحية حكماً ونبراساً تهتدي بنوره وتحتكم الى حقه ، في تعاليمها وممارساتها ، كلما انساقت الى طريق آلي من العادة المجردة ، مما تتعرض له دائماً الطبيعة البشرية .

لن اقتصر في كلامي عن المسيحية على ما احتواه العهد الجديد، بل سأضع أمامي في بحثي تطورات الحياة المسيحية كلها والتعاليم التي تسلسلت مدى الاجيال منذ عصر المسيح حتى اليوم . ولا معدىً عن الاعتراف بانه ثار بين الذين يدعون أنفسهم مسيحيين نظريات مختلفة متضاربة في تأويل الدين الذي به يدينون — نظريات في التأويل ادّت الى الانقسام الذي يحزن قلوب المسيحيين حقاً.وهم يبكون ذلك الاتحاد الذي ينبغي أن يكون ديدناً وهدىً لتلاميذ السيد الواحد ، الذي كان نبي الله الواحد ، والذي أعلن للناس الآب المحب الواحد للبشرية قاطبة . وفي وسع المسيحيين أن يروا في نظريات التأويل المختلفة التي ذهب اليها المعلمون والهيئات الدينية—مظاهر مختلفة للحياة الروحية كما أختبرها اولئك الافراد وتلك الجماعات عن مصدر واحد ، وإله واحد . وفي هذه النظريات المختلفة غنى ميراثهم المشترك .

ومع ذلك فلا مناص من الاسف والتأسي حيال الضعف في شعور الالفة المشتركة الذي نشأ عنه عجز مَن بيدهم السلطان على غلبة التجربة التي تعترضهم في انكار حرية الرأي وانتقاد مخالفيهم في الفكر ، والذي عجز فيه من يجنحون الى هذه الحرية على غلبة التجربة التي تعترضهم في رغبتهم الاستمتاع بهذا الاختبار الجديد دون اشراك أحد معهم وجعله مشاعاً لجماعة المؤمنين .

## طريقة معالجة الموضوع :

وسأعالج موضوعي معالجة تاريخية . وليس من شك ان الدين المسيحي ، من ناحيته التاريخية ، نشأ في احضان الدين اليهودي . فمؤسسه ومعلموه الاولون كانوا قبل كل شيء يهوداً اتقياء . ولا غنىً للباحثين في العهد الجديد عن التفكير في التقاليد الدينية اليهودية « كفرش background » تاريخي لما تضمنه العهد الجديد . ثم ان المسيحية قد انتشرت في العالم ، فيما وراء حدود فلسطين، حاملة رسالة خلاص للبشرية. وبهذا قد اتصلت بكثير من الاديان الاخرى والفلسفات وطرائق العبادة التي لم تكن معروفة لدى الاولين الذي رأوا مجد الله في وجه

سيّدهم [1] ، وخرجوا الى العالم يحملون قصة حياته وموته وقيامته. ولم تتصل المسيحية مجرد الاتصال بهذه الاديان والفلسفات وطرائق العبادة ، بل قد تعلمت المسيحية منها ما رأته لائقاً أو ضرورياً للتعبير عن اختبارها المتزايد في الله .

لهذا السبب نحسبه فرضاً لازماً على الباحثين في كتاب العهد الجديد ( الانجيل ) ، وفي الدين الذي نظر ، وما يزال ينظر ، الى هذا الكتاب مقياساً ونموذجاً للاحساس والفكر والعمل والكلام — الاّ ينسوا ان الفكرة عن الله ، وعن علاقة الانسان بالله، التي يأخذها العهد الجديد على نفسه، والتي تضمنتها المسيحية ، ليست هي الفكرة التي كانت معروفة لدى الفيلسوف الاغريقي ، ولا الشاعر الشمالي ، ولا الحكيم الهندي ، مهما يكن المسيحيون قد تعلموا في الماضي ، أو سيتعلمون في المستقبل من الاختبارات الدينية التي عرفها اولئك المفكرون والانبياء الآخرون ، أو الامم ، أو مدارس الفكر التي ألتقت بها المسيحية في سيرها . انما الفكرة التي تضمنتها المسيحية مستمدة من انبياء العبرانيين وشعرائهم ، هي الفكرة التي اشتملت عليها أسفار العهد القديم .

---

(١) ٢ كور ٤:٦

وهذا هو السبب الذي جعل الكنيسة المسيحية تدمج أسفار العهد القديم ضمن كتبها المقدسة ، وستبقى حريصة على هذا الادماج . نعم قد أدمجت في كتابها المقدس اخبار العهد القديم، وقصص ابطاله وقديسيه ، وأناشيد شعرائه ، وقواعد العبادة والصلاة.

وتُرى لماذا ادمجت الكنيسة المسيحية اسفار العهد القديم في كتابها المقدس وستبقى حريصة على هذا الادماج ؟ ألأن ما احتوته من اخبار التاريخ واناشيد الحرب وقصص الابطال والقديسين منقطعة النظير لا وجود لها في أي كتاب آخر؟ أم لان تلك الاسفار قد انفردت بين كتب العالم القديمة في احتكار التعاليم الاخلاقية السامية والاشعار الدينية النبيلة ؟أظن كتباً قديمة اخرى تدّعي انها حوت شيئاً من هذا . انما قد حرصت الكنيسة المسيحية على ادماج اسفار العهد القديم في كتابها المقدس لانها تمتاز بميزة خاصة بين الكتب المقدسة ، لما تضمنته من رسالة إلهية، هي مفتاح اللغة التي صاغت بها السماء أعلان الله ذاته في المسيح

وينبغي ألا يغرب عن البال ان من خصائص وجهة النظر

المسيحية نحو العالم احترامها للتاريخ وهو سير الحوادث وترتيبها الزمني، وتعليق اهمية خطيرة عليه وهو أمر لا قيمة له في نظر كثير من الفلسفات في الشرق والغرب. ويترتب على هـذا ان يكون لدين اسرائيل، وان يكون العهد القديم الذي يتضمن هذا الدين، مركز خاص به حيال المسيحية يمتاز عن سائر الـكتب المقدسة القديمة مهما نضجت تعاليمها الروحية، وذلك لان بين انجيل المسيحية وبين العهد القديم صلات سابقة وحلقات متواصلة.

وان صح هـذا القول من حيث نظم الدين والعبادة التي نسميها المسيحية، فبالاولى ينطبق على الاخلاق التي هي نظم السلوك الفردي والاجتماعي المقترنة بالمسيحية. وقد يقال بحق إن اجلَّ خدمة أضفتها المسيحية على الاخلاق المتعارفة في العالم المتحضر هذا العصر، انما هي وليدة الاستئناس بالمثل الادبية الدينية اليهودية في اوساط الامم، أي الشعوب الاخرى غير اسرائيل. وقد ألمح علماء اليهود بعض الاحيان الى ما يسمونه « عدم الانصاف » من جانب الـكتّاب المسيحيين الذين يدّعون ان بعض طرائق الفكر والعمل مسيحية بحتة في طبيعتها بينما يظنها اليهود من خصائص دينهم ومميزاته. ولـكن في أغلب الاحيان لا يفكر

اولئك الكتاب المسيحيون في موقفهم هذا (وهم ربما لم يحتكوا الا قليلاً بحياة جيرانهم اليهود الدينية)—في الموازنة أو التمييز بين المسيحية واليهودية، انما يفكرون فقط في تعاليم الكتاب المقدس الادبية والدينية، في العهدين القديم والجديد على السواء، وفي الموازنة بين هذه التعاليم، و بين المثُل المألوفة المعترف بها في الحياة العالمية في العالم الغربي الحديث. ومما لا جدال فيه ان اليهودي التقي، والمسيحي التقي، يقفان في هذه الموازنة الى جانب واحد. وذلك لان جزءاً من الكتاب المقدس، وهو العهد القديم، مقدس في نظر الاثنين على السواء، اليهودي والمسيحي. والجزء الآخر، العهد الجديد، هو في حد ذاته من عمل اليهود، لان مؤسس المسيحية ومعلميها الاولين، ومؤلفي الاسفار الاولى، كانوا بلا شك يهوداً، كما اسلفت